الفصل السابع عشر

معنى أهل البيت في القرآن الكريم

نقلت في الفصل الخامس عشر قول مركز الأبحاث العقائدية الآتي:

"وأما من يحتج على دخول النساء في مسألة السياق، فالسياق لا يستدل به مع ورود سبب نزول بخلافه، وكذلك فإن السياق قد هدم بمجيء ضمير التذكير خلافاً لما قبلها وبعدها، فيكون الخطاب حينئذ غير متوجه لنساء النبي ﷺ بالتأكيد مهما كانت تأويلاتهم لضمير التذكير في (عنكم ويطهركم)، فلو أراد الله تعالى إبقاء السياق في الكلام مع النساء لما أعرض عن ضمير التأنيث الى التذكير فإن ذلك يهدم السياق ويوهم الناس".

وأقول تعليقاً على هذا الرأي:

جواب هذا الالتباس أن العبارة القرآنية، أو الفضل الإلهي الكريم، يشمل سيد البيت وأهله، أي أنه يشمل النبي ﷺ وأهل بيته. والقاعدة

المشهورة والمعتمدة في اللغة العربية أن مخاطبة جمع من المذكر والمؤنث يكون بضمير المذكر تغليباً للمذكر على المؤنث.

تغيير الضمير عند مخاطبة أهل البيت ورد في سورة هود أيضا

وقد تكرر تغيير الضمير عند مخاطبة أهل البيت في موضع آخر من القرآن الكريم، عند قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾. (هود: ٦٩-٧٣)

انظر أيها الباحث عن الحق تغيير الضمير في الآية الأخيرة من هذا المقطع، بدأت الآية بخطاب الملائكة لزوجة سيدنا إبراهيم: "أتعجبين من أمر الله". ثم تغير الضمير مباشرة بعد ذلك: " رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت". لأن الدعاء هنا يشمل صاحب البيت، سيدنا إبراهيم عليه السلام.

فهل يقول قائل إن الدعاء خاص بسيدنا إبراهيم وحده ولا يشمل زوجته؟

لا يمكن ذلك ولا يقول به عاقل، لأن سياق الآية واضح شفاف ولا يقبل بهذا الاستثناء أبداً.

آيات في القرآن الكريم تدل على أن الزوجة من صميم أهل بيت الرجل

وهناك أمثلة أخرى كثيرة من القرآن الكريم تدل دلالة لا لبس فيها على أن النساء من صميم أهل بيت الرجل، علما بأن العبارة تتسع أيضا لأفراد عائلة الشخص، رجلا كان أو امرأة.

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾. (مريم: ٥٤-٥٥)

وقال أيضا:

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾. (طه: ٩-١٠)

وقال أيضا:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾. (القصص: ٢٩)

وفي بعض المواضع الأخرى من القرآن الكريم نسبة الأهل للمرأة أيضا، فللرجل أهله، وللمرأة أهلها، كما في قوله تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (يوسف: ٢٦)

وكما في سورة النساء أيضا:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥)

وفي موضع آخر في القرآن الكريم بيان للمعنى العام لأهل الشخص، بمعنى أنهم قرابته جميعا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. (التحريم: ٦)

هناك أمثلة أخرى كثيرة في القرآن الكريم تؤكد كلها المعنى اللغوي الشائع المتداول للأهل ولأهل البيت.

لماذا إذن، وبأي وجه حق، تكون زوجة النبي موسى عليه السلام داخلة في معنى أهله الذين خاطبهم وقال لهم " امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا

لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى"، وتخرج نساء النبي محمد ﷺ جميعا من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾؟

ولماذا، وبأي وجه حق، تكون زوجة النبي إبراهيم الخليل عليه السلام معنية ومخاطبة بقوله تعالى: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾، وتخرج نساء النبي محمد ﷺ جميعا من قوله تعالى﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾؟

لا يقول بهذا الرأي الشاذ إلا من يستشعر عداوة مع زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن، كيف تطيب نفس مؤمن بحمل العداوة والبغضاء في قلبه لنساء النبي ﷺ؟

بعض أسرار العداوة لزوجات النبي ﷺ

يحمل هذه البغضاء قلة من المسلمين، ويتوارثونها، لموقف سياسي اتخذوه حول مسألة من يتولى السلطة السياسية في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ.

فالذين غضبوا لأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يتول الحكم مباشرة بعد وفاة النبي ﷺ وجدوا في أنفسهم موجدة عظيمة على الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله، ومن جراء هذا الغضب نشأ غضب آخر على السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق

-رضي الله عنها- وعن أبيها خليفة رسول الله ﷺ وعلى السيدة حفصة بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وتضاعف الغضب على السيدة عائشة رضي الله عنها عند هؤلاء المبغضين لها بسبب خروجها في موقعة الجمل في أثناء خلافة سيدنا علي رضي الله عنه.

وكان من نتائج هذا الغضب أن تعمد هؤلاء المسلمون وقادتهم من أهل العلم والسياسة إخراج زوجات النبي ﷺ من سياق المخاطبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. فعلوا ذلك ولو قيل لواحد منهم إن زوجته ليست من أهل بيته لغضب من ذلك غضبا شديدا لا حد له.

الأهواء السياسية متقلبة، وكثيرا ما يجانبها الحق والمنطق. والناس يثورون ويضحون لمبادئ سياسية كثيرة ومتضاربة، حدث هذا في كل مراحل التاريخ البشري، وأولى بالنص القرآني ألا يفسر في ضوء آثار الصراعات السياسية على الحكم؛ لأن السياسة تفرق بين المرء وأخيه، وبين الوالد وولده، ومن الظلم لدين عظيم جاء رحمة للعالمين، أن يؤتى ويظلم من باب الخلاف حول الحكم والسلطة في عصر من العصور.